

صورة الأهالي من خلال الأدب
الشعبي لأصحاب الأقدام السوداء
ما بين (1890-1920).

- أ. لميش عبد الصمد
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة محمد بوضياف-المسيلة

مقدمة:

لا بد للمتتبع لتاريخ الاستعمار الفرنسي للجزائر أن يقف على الجوانب كلها حتى تكتمل صورة هذا المستعمر (بكسر الميم) في تعامله مع المستعمر (بفتح الميم). والأدب الشعبي الذي هو الجزء الأهم من الثقافة الشعبية لأصحاب الإقدام السوداء قد لعب دورا خطيرا في المعادلة الاستعمارية، إذ ساهم في بلورة صورة نمطية للأهالي الجزائريين في الفترة المحددة والمحصورة ما بين العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقدين التاليين له، وهي فترة تتميز بظهور أعمال أدبية مختلفة من أشهرها السلسلة القصصية (كافايوس)، (Cagayous)¹، والتي سنسلط الضوء عليها مع غيرها من النصوص في هذه المداخلة من خلال استنباط عناصر صورة الأهالي في هذه الأعمال الأدبية.

1. دلالات التسمية ومرادفاتها التحقيرية للجزائريين:

إن القراءة المتأنية لنصوص هذه السلسلة إلى جانب بعض الأعمال الأدبية المنشورة في الصحف والمجلات، بمستوى التحليل الذي قدمه الكاتب والمؤرخ (إيمانويل سيفان) في مقال له بعنوان (الاستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر)²، تفضي إلى نتائج هامة من حيث معرفة تلك التسميات التي أطلقت على الجزائريين ودلالاتها التي تم شحنها بها من قبل المعمرين وأصحاب الأقدام السوداء. وعليه فإن الدراسة المتتبعة للاستعمال الاصطلاحي لنعت ومناداة الجزائريين أعطت لنا النتائج الآتية:

1-1- استعملت كل من الأسماء الآتية بترادف واحد، وهي "الجزائريين" و"العرب" و"المسلمين" و"الأهالي"، ومن أمثلة هذا الترادف:

«... عرب خسيسون وكريهو الرائحة في قذارتهم الأهلية...»³

¹ وهي مجموعة قصص عرفت بسلسلة كافايوس، (Cagayous) وهو اسم بطل القصص، فقد ظلت تصدر خلال ثلاثين سنة (1891-1920). وقد شاعت لدى الجماهير بروايات زوج سوردي، لثمنها البخس. مؤلفها هو أوكست روبينييه (Auguste Robinet)، عاش بين (1862-1930)، كتب باسم مستعار هو (Musette)، عمل كصحفي ومحامي في مدينة الجزائر كما عمل كمفتش عام للمساعدات الإدارية الموجهة للأطفال.

² المقال ترجمه الدكتور أبو القاسم سعد الله في كتابه أبحاث وآراء. دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، المجلد الرابع، ص 47-96. وهو بمثابة أهم مصادر هذا المقال.

³ المرجع نفسه ص 76

وقد ورد في المقال السابق ذكره تعليقا على هذا التماهي والتداخل في استخدام هذه الاصطلاحات، ما نصه: «ففي روايات "زوج صوردي" [أي روايات كافيوس] الصادرة عن أصحاب الأقدام السوداء وفي الصحافة العامية لا يوجد في العادة للإنسان الأهلّي اسم أو سحنة أو ملامح خاصة، فهو فقط العربي أو الأهلّي "الأنديجين"»⁴

ومن خلال هذا النص نكتشف أن هذا الترادف يكتسي صفة مهينة للجزائريين بغض النظر عن الصفة التمييزية الثانوية بين العربي والقبائلي والميزابي أو البربري عموما، طالما أنه في جميع الأحوال أدنى من الفرنسي أو الأوربي.

1- 2- العرب: بصيغة الجمع، أو "العربي" بصيغة المفرد، أو امرأة "عربية" أو النساء "العربيات"... هذه الكلمات ألحق بها المعمرون من السخرية والإهانة والاحتقار، ما أزيحها عن دلالتها على الاسم إلى النعت، فصارت كالصفة لا كالاسم، لذلك فقد اشتق منه المعمرون لفظ "البيكو" من الأصل الفرنسي (arabique) إلى جانب (بيك) أو (بيكو) على أساس من الاشتقاق الإحتقاري.

كما أن "العرب" صارت كلمة لا تدل على جنس العرب كسلالة بقدر ما تم شحنها من قبل المعمرين بدلالات تختزل كل من هو من "الأهلّي" حتى ولو كان أمازيغيا. وقد اختصرت هذه الدلالات تحت اسم "الأنديجين" (Indigène) لما فيها من تمييز للإنسان الأهلّي الذي يفقد للمميزات التي ترفعه إلى مقابلته بالمعمر، فهو عربي فقط، دون مراعاة للفوارق الفردية أو الإثنية. والنتيجة هي أن التمييز بين العربي والقبائلي والميزابي تمييز تافه طالما أنه يندرج تحت فئة أدنى من المعمرين.

1- 3- المسلمون: أو "المسلمين" أو "المسلم" أو "المسلمات" أو "إسلامي" أو "إسلامية" لم يأخذ إلا دلالة "العرب" أو "الأهلّي"، واستعمل للجمع بين العرب والأمازيغ أو البربر والمزابيين في بوتقة واحدة.

1- 4- الأهلّي: هذا اللفظ ورد جمعا ومفردا واستخدم ليبدل على الجزائريين عموما من غير المعمرين، فمعناه هو معنى كلمة "الأنديجين"، (Indigène) وترادف مع لفظ "المحليين" بالدلالة نفسها.

إذن فالعربي أو المسلم الذي هو كل الأهلّي، من حيث هو مسند إليه، صار بمثابة المحور الذي تلتف حوله صفات عج بها السلوك اللفظي لأصحاب الأقدام السوداء، فهو:

- موتشو/ الموتشو: من (مسيو)، (Mesieux)

- شرايبا/ أراب: من (ليزاراب)، (Les arabes)

- موريسك، موكيرا: وأصلها الاشتقاقي من (Morisque) التي تعود إلى القرن الخامس عشر، ومعناها العرب الذين أدخلوا الديانة الكاثوليكية قسرا، بين عامي (1502-1611) في إسبانيا⁵. وقد أدخلت الكلمة إلى الفرنسية، وهي (Moresque) أو (Mauresque) على أنها تعني الجزائريات العاملات في بيوت الأوربيين في ظل الاحتلال الفرنسي قبل سنة 1960.

إن هذا الأسلوب في الإهانة باستخدام الاسم التمييزي للجزائريين، أي اسم جنس⁶ "العرب"، وتحويله من الاسم إلى الصفة حيث يفقد قوته حينما تتحول دلالاته الأساسية بهذا

⁴ المرجع نفسه. ص59.

⁵ أنظر اللفظ في قاموس: LE GRAND ROBERT par ALEIN REY. edition SEJER. 2005.

⁶ لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط1، ج1، ص586، مادة (ع ر ب)

الشكل. مرتبط بسوء نية واضح من خلال عمل المعمرين أي (أصحاب الأقدام السوداء) على تضمين كلمات "العرب والمسلمين والأهالي" دلالات احتقارية ومهينة للجزائريين، ليزعزعو بنيتهم النفسية بتشويه اللغة وألفاظ الأصل والانتفاء.

وإلى جانب هذه التسميات التي تم شحنها عمدا وبصورة مقصودة بدلالات مهينة، بغاية تحريفها عن موضوعيتها باستغلال أحد سبل التغيير الدلالي للألفاظ. وهناك نصوص ومقاطع توضح موقف المعمرين المتمظهر في أساليب تعاملهم مع الجزائريين، تجتمع كلها تحت موضوع الإهانة والسخرية، نتناولها في سلميات الاحتقار، ثم ما انجر عن هذه السلميات من ألفاظ ونعوت استعملت لسبب واحتقار وإهانة الجزائريين.

2- سلميات الإهانة والاستهزاء والاحتقار للجزائريين:

إن سلميات الإهانة والاستهزاء والاحتقار للجزائريين تظهر في تلك النصوص المفصحة عن ثنائيات تقابلية تضع الجزائريين في كفة تناظر غير متكافئة، فهم في طرف والمعمرون في طرف آخر ولكن بأي صورة ؟

2-1- العرب واللابشر

إن التقابل الذي أبرز بين (اللابشر) من جهة و (العرب) من جهة أخرى يخرج الأسلوب من بلاغية الخطاب إلى نمط من الإهانة لا يدانيه مثيل:

« وبينما كان كافيوس يقص كيف كان يحاول أن يجد طريقه إلى خارج قصر العدالة بمدينة الجزائر، وجد نفسه في غرفة حيث رأى "دكة من الرجال والنساء والعرب".⁷ »

أورد المؤلف عبارة "الرجال والنساء والعرب" مرتين، فقد ذكرها في الفقرة الأولى بعد التمهيد للدراسة، وكررها بأسلوبه الخاص مستغلا ذلك التقابل بين (الرجال والنساء) و(العرب)، بعد ستة وعشرين فقرة، تعبيرا منه على فكرة ضمنية هي محور صورة الجزائريين في البنية الثقافية للمعمرين التي بدت مزرية للغاية.

إن ما يتقابل مع العرب هم "الرجال" و"النساء" إذن فهم "اللابشر"، ومعنى هذا أن السلمية هنا هي أن ينزل الجزائريون منزل من يرافق "الرجال والنساء"، كالقطط والكلاب مثلا من الحيوانات، أو باقي الأشياء التي تكون ضمن محيطه. وهنا يدخل الجزائري ضمن كينونة أخرى، ليست مرتبطة بجنس من الأجناس كالفرنسي مقابل العربي مثلا، وهذا يعني أيضا خروج الرجال العرب والنساء العربيات من الرتبة الموضوعية هنا للمعمرين فقط.

إن هذا النص من الكتابات الأدبية للمعمرين، يلخص كل السلميات أو قل هو عنوانها، لأنها تمثل ذروة الاحتقار وتضع الجزائريين في الحد الأدنى الممكن. وقد أبرز هذا الكاتب إيمانويل سيفان:

«...إن ما هو سيء حول الرعية "الكولونيالية" ليس هو ملامحه البدنية أو حماقته ولا حتى غرائزه الفاسدة. إن المرء لفخور بامتلاكه أحمر ضخمة، أو حيوانات مفترسة. أما ما هو غير محتمل فهو أن يقدم الإنسان الأهلي نفسه على أنه كائن بشري كامل الأوصاف ويبرهن على أن له إرادة خاصة به»⁸

⁷ أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. أبو القاسم سعد الله، مجلد 4. ص 58.

⁸ المرجع نفسه. ص 89.

2-2- الجزائريون واللاشعبي أو الحيوان

وبناء على السلمية الأولى يمكن اشتقاق سلميات احتقار وإهانة أخرى، من نصوص استشهاد عديدة، ومنها: «لقد كان الأطفال يعلمون نتيجة لذلك، بأن العرب "الذين ليسوا شعبا مثلنا" لا يعانون في الواقع من الفقر الذين يعيشون فيه، ولا من الأمراض التي كثيرا ما تهاجمهم، وأن حاجتهم إلى المسكن وإلى الملابس أقل من غيرهم، وعلى الجملة فيمكن مقارنتها بحاجات الحيوانات الأليفة»⁹.

2-3- الجزائريون والجماعة الناقصة أو الدنيا

ومن المقابلات الأخرى الأقل حدة، ما كان بين المعمرين والجزائريين من فرق، فالمعمرون هم "جماعة ممتازة" والجزائريين هم "جماعة ناقصة" والمعمرون هم "الجماعة العليا كاملة البشرية" أما الجزائريون فهم "الجماعة الدنيا الأقل من البشرية الكاملة".

إن تقريب الجزائريين في هذه السلمية من أن يكونوا جماعة يتقابلون فيها مع جماعة "أصحاب الأقدام السوداء" هو تقريب لا يحظى منه الجزائري الذي يرتقي بالتعليم والعمل والاجتهاد بأكثر من الرتب الدينية، لأن البنية الاجتماعية لا تنفك عن التوجه السياسي العام الذي هو توجه المستعمر الغالب. فالمعمرون يحظون بامتياز عام، في القوانين والمعاملة من طرف النظام الحاكم الفرنسي، كما أن الواقع الاجتماعي الذي بني على أساس من السيطرة العسكرية، يظل فارضا لمنطق الأنا المتفوق على الآخر في كل المجالات، وبكل المعايير، حتى مع من تأهلوا نتيجة فرص التعليم والتكوين في الجيش كرتبة "كابورال" (caporal) التي نالها فصار، "كابو"، ولكنها تظل أدنى من رتبة "سيرجان شاف" (sergent-chef).¹⁰

2-4- لغة الجزائريين ولغة المعمرين

بطبيعة الحال فالسلمية لا بد أن تشمل حتى على اللغة؛ فالعربية لغة الجزائريين وهي بذلك لغة "لا نفع فيها وصعبة وعنيفة ووحشية" أما لغة أصحاب الأقدام السوداء فهي لهجة "الباتو المتفوقة" حتى على الفرنسية الفصيحة ويرد في هذا السياق نص من أدب أصحاب الأقدام السوداء يهين العربية: «...التقى كاقايوس وأصدقائه مع مجموعة من البحارة السود كانوا يزورون الجزائر، فلاحظوا وهم مندھشون، أن البحارة كانوا يتكلمون الانكليزية فيما بينهم. فصاح أحد أصدقاء كاقايوس بغضب قائلا: "أوقفوا كل هذه المسرحية! انظروا إلى هؤلاء الزنوج الذين جاؤوا لتمثيل دور الانكليز لنا. إنه من الأفضل لكم أن تتحدثوا بالعربية (مع التركيز على العبارتين الأخيرتين). فلا يوجد أحد يصدق أن هؤلاء البحارة الذين هم أكثر سوادا من "الموتشو"، باعة الغنم، هم حقا سواح إنكليز»¹¹.

إن هذه النصوص وغيرها كثير، نوردها للاستدلال على وضع الجزائري في مجموعة من المقابلات التمييزية والتصنيفية في إطار "سلميات الاحتقار والاستهزاء والإهانة"، وهي قوية الدلالة، مما تذكي في نفس القارئ الأشمئزاز والرفض.

⁹ المرجع نفسه. ص 84.

¹⁰ المرجع نفسه. ص 70.

¹¹ المرجع نفسه. ص 74.

والنتيجة المحصلة من هذا الاحتقار أن يقع الجزائري تحت طائلة الوصف بكل لفظ مهين، وقد عجز نصوص أصحاب الأقدام السوداء بالسيئ من الألفاظ التي نتناولها فيما يأتي.

3- النعوت والإطلاقات المهينة للجزائريين:

هذا العنصر هو بمثابة مسرد للألفاظ والعبارات الوجيزة كثمرة للدراسة الاستقرائية لمختلف النعوت والإطلاقات المهينة التي عومل بها الجزائريون، المبتوثة في ثقافة أصحاب الأقدام السوداء الشعبية، حيث يمكن إيرادها في حقول دلالية كما يأتي:

عاهات بدنية: معد (infectieux) - أعور - عميان متسولون - معطوبي الشوارع .
- معوق - شقي - معتوهين.

حيوانات:

- بهائم - حمار - راتون - يزحف على أربع.
ألفاظ سباب:

- حمقى - خسيس - أوباش - جبري - خبيث - في أسفل السافلين.
- متعصب الغابة - متقهقر نحو الصحراء - هارب من الريف الجاف - بدو .
- متوحش أو وحشي.
أفات اجتماعية:

- فقير - جائع - يعمل بطل - طالب للبقشيش .
- يأكل الخبز والتمر الجاف - ينبشون صناديق الزبالة ويأكلون منها .
- متسول - متسكع - يعيش على الحرام والسرقة .
- سراق - غشاش - لص كبير .
- قاطع طريق - خطافون - حشاشون .
- مسكين - مزلول - عبيد - بئس .
انحرافات خلقية:

- شهواني (متهاك على الجنس بخشونة أو بجامع باستمرار أو باحث عن الجماع)
- شاذ جنسيا - خطير على الصبيان - عدواني متحرش جنسيا .
صفات سيئة في الإنسان:

- عدواني - شرس - غريزته فاسدة - متوتر - محب للهو - كبير ولا يعمل .
- فاجر - مجازف - كسول - لا يرعوي - كذاب أو ولد كذابا .
- مكار - منافق - ذو عقلية سوقية (يساوم في الأسعار) .
- ثقل الدم - مهلهل - اندفاعي - بدائي - غير ناضج .
- قذر أو "صال أراب" - غير طاهر - كرية الرائحة .
- متخلف أو محبوب بالتخلف - غريب أو ذو عادات غريبة .
النساء الجزائريات هن:

- عاهرات أو عاهرات أهليات - عاهرات القصبة أو نساء القصبة .
- حوريات وشواري - مومسات - بنات هوى - ساقطات .
- المرأة الأهلية وصيفة - تباع بالزواج .

وما كان من وصف للجزائري بالإيجاب فهو بكونه (بريء مثير للشفقة، ساذج) غير أنه لا يلبث حتى يصير بذلك (مثيرا للضحك)، كما أنه على الرغم من أنه (قوي بدنيا)، إلا أنه (اندفاعي و عدواني).

وحتى الأشياء والأعمال حينما ترتبط "بالعربي" يطالها ما طاله من قبح، ولو كان الشيء أو الفعل عاديا فإنه يصير سببا بهذا الفعل "الإسنادي" ومنحطا ووحشيا، وغير جمالي:

- تلفون عربي: اتصال من الفم إلى الأذن.

- شغل عربي: غير متقن.

- صندوق عربي: كبير مثير للسخرية.

- الطريقة العربية في فعل الأشياء: دائما سيئة.

كما ارتبط الأهل دائما بالوظائف الدنيئة:

فالرجل أو الرجال:

-حمالون بئسون- حمالون تعساء - شاوش وشاوشة أي من يدخل الزائرين- باعة الطريق- ينظف المراحيض- يمسح الأحذية - يبيع السفنج.

والنساء: يشتغلن راعيات أطفال للأسر الدنيا من المعمرين.

والأطفال: يعملون في المقاهي، أو أطفال مقاهي.

كما نجد أحيانا تخصيص للعرب بمهنة (بيع السفنج) والقبائل بمهنة (بيع الزيت) والمزابيين بمهنة (التجارة أو أصحاب محلات تجارية)

كما ارتبطت أماكن سكنه بالوضاعة فكلها أماكن دنيئة، كما أنها لا تتفك عن الطبيعة، التي هي مثواه الأول والأخير، عكس الأوربي الذي صنع المدينة وهو أحق بها، فموطن الجزائريين هو:

-دوّار قصبة-درب فيلاج نيقر(قرية زنجية) -المدن القصديرية -الأرياف -برج خيمة -قربي (مسكن بئس) - مشتى.

خاتمة:

إذن كانت هذه هي صورة الأهل في الأدب الشعبي لأصحاب الأقدام السوداء، والتي باستعراض جزئياتها في هذا المقال يتأكد لكل دارس للتاريخ أهمية أن يستعين المؤرخ بالأدب والثقافة الخاصة بالمعمرين التي واجهها الشعب الجزائري في بلده. فهي مفتاح لنقد ودراسة صورة الجزائري في أذهان المعمرين من أصحاب الأقدام السوداء، وذلك من زاوية العلوم الإنسانية بصفة عامة، والانتروبولوجيا وعلم الاجتماع بصفة خاصة.

والنتيجة هي أن يرى الجميع كيف عامل الفرنسي الجزائري، وكيف أن هذه الصورة التي بدت مزرية للغاية لم تكن إلا واحدة من نتائج الحماية القانونية والسياسية والعسكرية والإيديولوجية التي توفرت لهؤلاء المعمرين الذين لم يستطيعوا أن يمنحوا الجزائري حقه في أن يكون في مثل مستواهم حسب جميع المقاييس العرقية والدينية والثقافية والعلمية، فبقي في أدنى درجات السلم الإنساني، الذي لم يتمكن من أن يرتقيه إلا كاستثناء. وبطبيعة الحال لم يكن إلا في شكل ثورة على هذه المعادلة الاستعمارية غير المتكافئة.

المراجع :

أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت،
1996، المجلد الرابع.
تاريخ الجزائر المعاصر. العربي الزبيدي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999.
لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط1. ج1، ص586، مادة: (ع ر ب).
المنهل(قاموس فرنسي عربي)، سهيل إدريس، دار الآداب، بيروت، ط4، 1999.

DICTIONNAIRE ENCYCLOPEDIQUE DES SCIENCES DU LANGUAGE.
.Ducro. T.Todorov. EDITION DU SEUIL.1972.
LE GRAND ROBERT PAR Alein Rey .édition SEJER. 2005.
LE DICTIONNAIRE HACHETTE-OXFORD. Oxford University Press.1994 .